الفصل الثالث

عصر التنوير والتحرير

١ ـ نحو عهد جديد :

ظن العلماء الى وقت قريب أن عدم الاتصال بين اليهود والمسيحيين بقى مقطوعا طوال القرون الوسطى الى أن جاء العصر الحديث . الا أن البحث العلمى الحديث فى كثير من مصنفات ذلك العهد تعطى غير هذا الانطباع .

أدت الحروب الصليبية حال انتهائها الى انتعاش فى الحياة الأوروبية على جميع المستويات . اذ انتشرت التجارة بين الشرق والغرب. وأخذ الغرب ينهل من مرافق الحضارة العربية . وعلى الأثر ، كبرت المدن وتضخمت ونشطت الحركة فيها مما أدى الى نشوء حضارة مدينية ، لا قروية زراعية ، تعتمد على حركة التجارة ورجالها لا على الكنيسة وانظمتها . وشدت الحضارة الجديدة الشعوب اليها وكادت تغير مجتمعاتها من النظام الأسرى الى نظام شخصى تعاملى ينطوى على اعتبار المواطن بما عمل لنفسه أو عليها ، لا بالأسرة أو الملة التى ولد فيها . ودبت هذه الحياة الجديدة فى مدن ايطاليا ، فكان عصر النهضة (Renoissanco) ثم تعدتها الى مدن أوروبا الأخرى .

وعليه ، زاد الاتصال بين اليهود والمسيحيين لا فى مضمار التجارة فحسب بلى على الصعيد الاجتماعى . فكثيرا ما كان لرجالات عصر النهضة زملاء يهود . حتى القصر البابوى لم يخل من الزوار اليهود ، لا سيما أثناء بابوية كليمنت السابع (١٥٢٣ ـ ١٥٣٤) ، أحد أعضاء أسرة دو مدينشى المشهورة ، الذى استضاف اثنين من مدعى النبوة

اليهود (سليمان مولكو وداوود روبينى) حماهم ضد الاضطهاد القضائى (Lnquisition) . (١)

وفى البندقية ، حسب شهادة رسائل الحاخام ليون دامودينا ، كان يلتقى عدد من الحاخامين ورجالات الكنيسة لتبادل وجهات النظر فى الأمـــور الدينية واللاهـــوتية فى جـــو من الصـــداقة وحسن النية المتبادلة (٢) ، وتحت هذه الظروف أيضا ، تعرف اليهود على موسيقى المسيحيين . فكلف اليهودى سليمان دوروسى ، وكان عازف كمان فى بلاط أمير مانتوا ، بتاليف عدد من القطع الموسيقية متجانسة تمام التجانس مع موسيقى المحيط النهضوى الايطالى . بل ان الحاخـــام ابراهـــام يوسف جرازيانى قرر لأول مرة فى تاريخ اليهود استعمال الأرغن فى كنيسه بالرغم من القانون التلمودى الذى يعتبر ادخال الآلات الموسيقية بجميع أنواعها على الكنيس اثما وكفرا (٣) .

وكان أكبر مدى للحرية الشخصية ما تمتع به سكان هولندا اليهود ، فالمحظورات على اليهود كانت جد قليلة ، ومن هولندا ، التى آوت أعدادا كبيرة من اليهود النازحين من انجلترا وفرنسا ، عاد اليهود الى الهجرة الى انجلترا واستعمارهـــا بعد أن أطـــاح أوليفر كرومويـــل بالقوانين الاضطهادية المتحكمة بيهود انجلترا منذ أن جاءوها لأول مرة . وفى الواقع لم تتح قوانين انجلترا لليهود التجنس بالجنســـية الانجليزية الا بعد نقض قانون الجنسية لسنة ١٧٥٣ . ومن هولندا أيضا جاء أول مهاجرين الى أمريكا سنة ١٦٥٤ ونزلـــوا فى المســـتعمرة الهولندية التى

---

(١) Gecil Roth, The Jews in The Renaissance Philadelphia : Jewish Publication Society 1959, p. 23.

(٢) Ellis Rivkin, Leon da Modena and the Kol Sakhal. Cincinnati : Hebrew Union College Press, 1952, p. 25.

(٣) Grove's Dictionary of Music and Musicians. London : Macmillan & Co., 1954, VII, p. 243.

Abraham Z. Idelsohn. Jewish Music in its Historical Development, New York : Henry Holt, 1929, pp. 196-203.

كانت تسمى نيو امستردام وهى مدينة نيويورك . فهؤلاء اليهود النازحين الى أمريكا لم يكونوا جاءوا من بلاد اقرب ما تكون الى التحرر فحسب ، بل نزلوا فى بلاد لا تعرف الجيتو ولا تشعر بأية قيود تجاه الخبرة الاوروبية فى هذا الصدد ، فكان هؤلاء اليهود أول يهود عصريين

* * *

٢ ـ حركة التنوير فى أوروبا :

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وصل نمو قوى عقلية واجتماعية وسياسية كانت قد ولدت خلال عصر النهضة درجة التفجر . فكان عصر التنوير والحركة المسماة باسمه . تقوم حركة التنوير على مبادىء خمسة ، وهى سهلة التناول والفهم ، ألا وهى :

(١) يتألف الكون من عناصر وقوى مرتبطة ببعضها بشكل معقول اى تتحكم فى علاقاتها قوانين تؤلف فى كليتها سنة عقلانية لا تبديل لها . فكل ما فى الكون يخضع لها .

(٢) عقل الانسان يؤهله لاكتشاف قوانين الكون وبالتالى لمعرفة أسراره .

(٣) عقل الانسان وما يقوم عليه من مبادىء عامة كاف لتفهم معانى الكون .

(٤) لا حاجة اذن للعقل الانسانى بان يرجع الى الوحى أو المعرفة الماورائية ، لادارة حياته وشئون الدنيا .

(٥) وان اعترف بأن ما كل تعقل يصيب قوانين الكون وأسراره فانه يكفى أن عقل الانسان قابل اذا ما هذب ، أن ينفذ اليها . فالانسان جدير بتصحيح أخطائه .

قال مونتيسكيو : « عالم الانسان أقل انصياعا للقوانين من عوالم الحيوان والنبات والجماد ، وبالرغم من أن لهذا العالم قوانينه الخاصة به ، وهى قوانين غير قابلة للتبديل فى حد ذاتها ، لا يمتثل الانسان لهذه القوانين دائما وبدا . يرجع هذا الى أن الانسان كمخلوق وذى طبيعة محدودة ، معرض للخطأ . وهذا بالرغم من أن الانسان تلزمه

طبيعته للحياة ككائن حر . ولهذا ، نجد الانسان لا يمتثل دائما لقوانين عالمه ، بل حتى ولا للقوانين التى يسنها هو لينظم سلوكه فى العالم » (٤) .

ويقول كانت : « التنوير هو الافراج عن الانسان من الوصايات التى فرضها هو على نفسه . والوصاية هى عدم جرأة الانسان على استعمال قواه الطبيعية بدون استئذان الغير ، ولم تكن هذه الوصاية مفروضة على الانسان من قبل أحد ، ذلك أنها لا تعتمد على نقص فى العقل بل فى الجرأة على استخدامه ... أما الوصاية الدينية ، فهى أرزل الوصايات وأشدها ضررا » (٥) .

وسرت هذه العقيدة فى الفكر الأوروبى سريان اللهب فى القش ، فاعتبر من آمن بها كل انسان آخر متساويا معه فى العقلانية . فبما أن الانسان انسان . وله عقل ، فهو جدير باستخدامه . واذا استخدمه ، وفعل ذلك بأمانة وأصالة ومسئولية ، توصل الى نفس ما يتوصل اليه كل انسان آخر . اذن ، فلا فرق بين البشر ، وكل ما اصطنع من تفرقة بينهم يجب أن يزول سريعا . وسرعان ما طبق هذا الحكم على جميع مرافق الحياة . وسارع العقلانيون المتحررون من نير الكنيسة وتداليمها الى تطبيق المبدأ المذكور فى موضوع الدين . فهم اعتبروا الفرق بين الدينين المسيحى واليهودى غير ذى بال فى الحياة المدنية ، وقالوا : اذا كانت القرارات السياسية يجب أن يتخذها المواطنون باستخدام عقولهم وبتعقلهم للأمور ، فما يهم أن يدين المواطنون بأديان مختلفة ؟ واذا كانت

---

(٤) Montesquieu, The Spirit of The Laws, tr. Thomas Nugent, New York : Colonial Press, 1900, Bk I, Section 1, p. 2.

(٥) Immanuel Kant, Foundations of The Motaphysics of Monals and What is Enlightenment ? tr. Lewis White Beck. Chicago : University of Chicago Press, 1950, pp. 286-291.

القرارات الاقتصادية يجب أن يتخذها المواطن حسب ما تمليه مصلحته الشخصية ، وذلك باستخدامه عقله وبتعقله للأمور الاقتصادية ، فما يهم أن يدين المواطنون بأديان مختلفة ؟ وأخيرا ، اذا كان الاختلاط الاجتماعى بين الناس يقوم على تمتعهم بموهبة العقل ويستهدف تهذيب هذه الموهبة واعلامها وتغوير ادراكها وتفهمها للأمور ، فما يهم أن يتكلم ويتحادث ويتجادل ذوو الأديان المختلفة مع بعضهم بعضا ؟ وهكذا ، تداخل اليهود فى المجتمع المسيحى بعد أن انقطعوا عنه طوال القرون (٦) .

أما فى أمريكا ، فالأمر لم يحتج الى مثل هذه الحجج . يقول بارون ربلاو ، مؤرخا اليهود فى أمريكا ، بأنه نظرا الى أن وثيقة الاستقلال الأمريكى ، وتصريح جيفرسون حول تأسيس الحرية الدينية فى ولاية فرجينيا ، ودستور الولايت المتحدة ، وقانون حقوق الانسان — وهى قواعد الكيان الأمريكى السياسى كله ، تعبر عن وجهة نظر التنوير فى جميع مرافق الحياة ، فان اليهود لم يكونوا يحتاجون الى تحرير فى أمريكا . فهم دخلوها أحرارا واستطاعوا الانخراط فى جميع أسلاكها الادارية والديبلوماسية والعسكرية . وجد اليهود بين موظفى الرئيس واشنجطن ، وبين أول فوج طلبة دخل كلية أمريكا العسكرية . عندما اقيم المهرجان الخاص بابرام الدستور فى فيلادلفيا سنة ١٧٨٩ ، وضعت مائدة خاصة للأطعمة والمرطبات المحضرة على الطريقة اليهودية ، أو الكوشير (٧) .

---

(٦) Salo W. Baron, A Social and Religious. History of the Jews : New York : Columbia University Press, 1937, p. 142.

Louis Finkelstein, ed., The Jews, Their Histroy Culture and Religion Philadelphia : Jewish Publication Society, 1949. I, pp. 261, 264-266.

(٧) Joseph L. Blau and Salo W. Baron, The Jews of The United States, 1790 – 1840 : A Documentary History. New York : Columbia University Press, 1964. I, pp. 50, 248-249.

ومع هذا فان دخـــول اليهود فى الحيـــاة السياسية والاجتماعية والفكرية الأوروبية جـاء متقطعا وبطيئا الى أن قامت الثورة الفرنسية وتبعها من تبعها من حملات وفتوحات لنابليون . عندئذ انهدم الجدار الفاصل تماما وراح اليهود يمركزون أنفسهم فى شتى المجالات يؤثرون فيها ويتأثرون بها .

* * *

٣ ـ الرد اليهودى الأول (موسى مندلسون) :

كـان موسى مندلسـون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) أعظـم من تأثـروا بايديولوجية عصره ، أى بالتفتح والعقلانية ، وكان صديقا لاثنين من كبـار رجـالات العصر ، وهما جوتهولد ليسنج وعمانويل كانت (٨) . ولد فى الجيتو فى مدينة دساو فى ألمانيا ونشأ طالبا مجتهدا شديد الفطنة والذكـاء . درس التلمود على يد الحاخـــام داوود فرنكـل واتمـه فى الرابعة عشر من عمره . ثم ذهب الى برلين ودرس فى معاهدها باللغـات الأوروبية ، ومهد ليسنج لصديقه مندلسون الدخول فى الصالونات الأدبية . وما أن جاءت سنة ١٧٦٣ الا وكانت له سمعة أدبية كبيرة نال ازاءهـــا جائزة أكاديمية العلوم البروسية متفوقا حتى على الفيلسوف كانت أحد المتسابقين معه . وأنعمت عليه الحكومة البروسية بلقب (Schutzjude) أى يهودى ذى حماية خاصة . وكان أيضا شديد التمسك بتراثه اليهودى والحرص عليه . وأول ما تطرق لذهنه أنه طالما أنه هو استطاع أن يحيا التراثين ويعرفهما حـق المعرفة ، فلم لا يقـدم اليهود على درس مواضيع هذا العصر والتقدم بانفسهم ودينهم الى الأمام ؟ فالى هـــذا الهدف كرس مندلسون جهوده . وكان أول ما قام به ترجمة التلمـــود للألمانية ، كى يتسنى لليهود الذين تعلموا الألمانية فأحبوها ولم يتعلموا العبرية التعرف على تراثهم وقانون حياتهم من جهة ، وللألمان التعرف

---

(٨) انظر تفاصيل حياة مندلسون فى كتاب :
Hermann Walter Moses Mendelssohn, Critic and Philosopher, New York : Bloch, 1930.

ثم فى أية دائرة معارف يهودية تحت اسمه .

على الدين اليهودى واحترامه . ويبـــدو أن مندلسون وعى دوره فى التاريـــخ كـدور الوسـيط بين ثقافتين : الألمـانية الحديثـة واليهودية التلمودية .

وأسس مندلسون مجلة هاميعاسف (المجمع) لنقل الثقافة الألمانية الى اليهود باللغة العبرية مستهدفا تثقيف المحافظين والمسنين من شعبه الذين لم يتعلموا الألمانية . وكذلك أسس « المدرسـة اليهودية الحرة » سنة ١٨٧١ فى برلين للقيام بنفس الهدف ، وأقام التدريس فيها فى مواضيع عصرية وتلمودية . وكان دائما يرى نفسه كسفير غير رسمى من اليهود الى الأمة الألمانية .

أما تأثر مندلسـون بالفكر الغربى الحديث فكـان عميقـا بَعيـد المدى ، بل أنه سابق لذلك الفكر فى أمر علاقة الدين بالدولة . ففى كتابه المعنون « أورشليم » والمنشور سنة ١٧٨٣ ، قدم رأيه فى هذه القضـية مدعما بحجج قوية مبنية على منطق نفعى . فهو يقول انه اذا أريـــد للمواطن من موظف أو سياسى أو تاجر أو زارع أو عامل أو جندى ، أن يُحسن القيام بالواجب القومى المنوط به ، يجب عليه أن لا ينظر فى أمر الدين ، بل أن ينحيه عن المجالات العملية . واذا أريد أن يتمتـع المواطن بحرية الفكر يعمل بها خلاقا فعالا ومفجرا لطاقاته ، وجـــب أن يُنحى الدين عن المجالات النظرية أيضا . وفى النصف الثانى من كتابه « أورشليم » ، تصور مندلسون الدين اليهودى كشريعة فقط ، لا كعقيدة وحيية . فالمبادىء والقصص التاريخية فى التوراة ليست فى رأيه من العقيدة اليهودية . فقط الشريعة ، أى القانون الخاص باليهود جدير بالايمان . والشريعة لا تقول لليهودى ما يجب أن يؤمن به بل ما يجب عليه فعله (٩) ، وبديهى أن مندلسون أراد بهذا الموقف أن يحرر الفكر

---

(٩) يقول مندلسون : « أنا لا أؤمن بأية مبادىء سوى التى يتفهمها العقل الانسانى والتى يمكن تبيانها وبرهنتها للفكر الانسانى . لقـــد أخطأ من ظن أنى بقولى هذا خرجت على دين الأجداد . يترتب مثـل هذا الظن على ادراك خاطىء للدين اليهودى ، بل الأمر على عكس ذلك فهذا أمر لازم للدين اليهودى وهو يختلف بذلك تمام الاختلاف عن الدين المسيحى . =

من قيوده الدينية وأن يبقى السلوك مقيدا بهذه القيود . فالفكر يجب أن يعمل بنفسه ويتقبل ما يشاء دون اكراه . لذلك ، لا عقيدة بالمعنى المسيحى ولا معجزات . أما السلوك فلا بد له من التقيد بشريعة اليهود كما تلقاها موسى وبلورها الحاخامون فى التلمود ، الا أن مندلسون آمن بالبعث لكن على أساس عقلى شبيه بتفكير عمانوئيل كانت فى هـذا المضمار .

* * *

٤ ـ تحرير اليهود :

كانت بداية التحرير العملى فى الميادين السياسية والمدنية ما أبرمه جوزيف الثانى ، امبراطور النمسا ، من قوانين واتخذه من اجراءات تجاه يهود بلاده . اذ نقض الضرائب الخاصة المفروضة على اليهود ، وأعفاهم من لبس العلامة الصفراء المميزة ، وأعلن أن على اليهود التجاوب مع هذه الاجراءات الجديدة . فاذا هم انصهروا فى جسم الأمة النمساوية ، أكمل الامبراطور تحريرهم ورفع عنهم كل نير . وطلب الامبراطور الى اليهود أن يتخذوا أسماء عائلية وأن يكفوا عن تسمية أنفسهم بأسماء آبائهم . الا أن اليهود لم يستجيبوا لهذه الاجراءات . فاستغلوها لصالحهم وتداخلوا فى حياة البلاد الثقافية والاقتصادية والسياسية وتمركزوا فيها بدون أن يغيروا أسماؤهم ودون

= وباختصار يمكننا القول بأن الدين اليهودى لا يعترف باية عقيدة من وحى السماء بالمعنى المفهوم عند المسيحيين . فلليهود شريعة الهية ، قوانين وأوامر ، وسنن ومبادىء أخلاق وسلوك ترمى الى تحقيق السعادة فى الدنيا والآخرة . وهذه كلها أوحيت اليهم من قبل موسى بطريقة عجيبة ، ما ورائية . ولكنها ليست عقائد ، ولا حقائق ترمى الى الخلاص ولا مبادىء عامة قابلة للبرهان العقلى ، فالحقائق والمبادىء العامة لم يوحى بها الينا فحسب بل لجميع البشر ، وهى من النوع المستمد من الله ، والطبيعة والتاريخ ، وليس بالكلمة أو الكتاب » . كما جاء فى كتاب :

Moses Mendelsohn «Jerusalem», Part II Gesammelte Schriften. Leipzig, 1843, III, p. 319.

ان يعتبروا انفسهم مواطنين نمساويين بكل معنى الكلمة . بـــل بقـوا يترفعون عن المسيحيين ، يدخلون بيوتهم ومدارســـهم وتجاراتهـــم ولا يبيحون لهم دخول بيوت اليهود ومدارسهم وتجاراتهم فاخـــذت الحكومة تطلق عليهم أسماء جديدة دون اعتبار لرغباتهم ولا تعترف لهم بغير هذه الأسماء . ومن هنا جاءت معظم أسماء اليهود الألمانية فى أوروبا وأمريكا (١٠) .

الا أن التحرير على نطاق واسع لم يتم الا بعد الثورة الفرنسية . وقـد ابتـدأ فى فرنســا عندما قـررت الجمعية الوطنية الفرنسـية فى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ اعتبار اليهود المقيمين فى فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته ، اعتمد هذا القرار على وثيقة حقوق الانسان والمواطن التى تقبلها الشعب الفرنسى اثر الثورة ، والتى قالت :

أولا : ان الانسان خلق حرا ومتساويـا مـــع الناس جميعـا فى الحقوق . فالتمييز المدنى يجب أن لا يقوم الا على أساس الخدمة العامة التى يقدمها المواطن للوطن .

ثانيا : أن الهدف الأخير لجميع التجمعات السياسية هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية كاملة ، ألا وهى الحرية والملكية الفردية والأمن ومقاومة الظلم ...

ثالثا : لا يعترض رجل بسبب آرائه ، حتى ولا بسبب آرائه الدينية ومعتقداته ، بشرط أن لا يؤدى اعتناقه بها الى الاخلال بالأمن ونظـام القانون (١١) .

---

(١٠) Cecil Poth, **A Short History of The Jewish People.** London : East & West Library, 1948, p. 339.

(١١) انظر تفاصيل البحث فى كتاب :

Georges Lefebure, The Goming of The French Revolution, tr. R. R. Palmer. Princeton : Princeton University Press, 1947 pp. 169-181, 221-223.

وجاءت اجراءات تحرير اليهود تترى بعد كل فتح من فتوحات الجيش الفرنسى • ففى سنة ١٧٩٦ ، بحث البرلمان الهولندى أمر تحرير اليهود تحت ضغط من السفير الفرنسى • وما أن جاءت السنة التالية حتى انتخب اليهود لعضوية البرلمان • وفى نفس العام تحرر اليهود فى ايطاليا • الا انه تأخر فى بروسيا الى سنة ١٨١٢ ، وبعد هزيمة فرنسا فى روسيا وانحلال الامبراطورية النابليونية ، عادت الدول الى اقصاء اليهود عن مكاسبهم السياسية والمدنية ، ما عدا فرنسا وهولندا • ولكن سرعان ما أبرمت قوانين جديدة أعادت لليهود حريتهم ، ففى سنة ١٨٧٠ ، لم يبق فى أوروبا كلها يهودى واحد غير محرر •

* * *

٥ ـ مشكلة التحرير الكبرى :

وكان سهلا على اليهودى قبل التحرر أن يعيش كيهودى وأن يقيم التوراة والتلمود فى حياته وفكره ، كما رأينا من قبل • أما الآن وقد تحرر ، وأصبح لا يهوديا فحسب مقيما كأجنبى فى بلد غريب ، بل يهودى ألمانى ويهودى فرنسى ويهودى هولندى ، تعثر الطريق أمامه وشق • فما معنى أن يكون يهوديا يدين للقانون من جهة وألمانيا أو فرنسيا يدين بالولاء لوطن وحكومة ودولة وثقافة وحضارة مغايرة لما عرفه فى توراته وتلموده ؟ ولم تخل حياة اليهودى فى أوروبا من مشاكل ألزمته طرح هذا السؤال على نفسه فى كل صباح • وهذه هى المشكلة الأولى •

أما المشكلة الثانية ، فهى تتعلق بعلمانية الدول الأوروبية المحررة لليهود • علينا أن نذكر أن تحرير اليهود لم يأت الا نتيجة لنمو العلمانية فى التنظيم السياسى والاجتماعى • اذ أن اقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى الى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأسس لجميع المعاملات والتظيمات • ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية • وتماسك أفراد الأمة الواحدة ، بما فيهم اليهود ، لا على أساس الدين ، بل على أساس وجودهم فى الوطن ، وعمومية المنفعة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بينهم •

فالجغرافيا والاقتصاد حلتا محل الدين فى تكوين الدولة • الا أن هذه العلمانية نظرية نبعت من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية • فالدين اليهودى لا يفهم أن يكون العمل الاقتصادى ـ ككسب العيش مثلا ـ عملا لا يمسه الدين بصلة ، وهو لا يفهم أيضا بالنظر لعنصريته وانفراديته وجماعيته أن يكون العمل السياسى ـ كحفظ الأمن والخدمات العامة مثلا ـ عملا لا يمسه الدين • كيف ذلك والدين اليهودى كله يقوم على انفرادية اليهود عن البشر أجمع ؟ أما المسيحى الأوروبى ، فقد قسم حياته الى دوائر وجعل بينها سدودا تمنع أى اتصال • وتجرى الحياة فى كل من هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة بها لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجرى فى الدوائر الأخرى • فالعائلة والأخلاق الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، كل واحدة منها تؤلف ملكوتا مستقلا • فالويل كل الويل اذا سمح الغربى لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتاثير فى الاقتصاد • ويالها من مصيبة اذا تعدت مبادىء الدائرة الاقتصادية حدودها للتاثير فى الدين • والواقع ليست العلمانية سوى الاعتراف بأن ليس هنالك مبدأ عام يشمل حياة الانسان بكاملها كما هو الحال فى النظرة الدينية ، فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبداه الخاص •

ولا بد أن تؤدى العلمانية عاجلا أم آجلا الى اقصاء الدين بالمرة أو احالته الى عالم الخرافات البالية والتاريخ القديم • فالانسان الذى يرى نفسه متفقا مع جميع أبناء أمته فى جميع الدوائر ما عدا واحدة . لا بد له من أن يميل مع الوقت الى التغلب على هذا التمييز ليمحيه • فما هو مكان هذه الدوائر الدينية من الحياة ، اذا كانت فاعلية مبادئها مقصورة على التعبد الطقسى وبعيدة عن مجالات الحياة الأخرى ؟

صحيح أن حركة التحرير جلبت منافع كبيرة لأفراد اليهود ولجماعتهم بعد أن مكنتهم من الدخول فى حومات الحياة بل حتى من السيطرة عليها فى المجتمعات الغربية • أما الأمة اليهودية كأمة ، فان التحامها وتلاصقها ببعضها أحدث التحرر فيه تصدع كبير • فبينما كان اليهودى لا كيان له سوى كعضو فى الأمة اليهودية وكمحقق لملزمات الدين اليهودى

فى جميع مجالات الحياة ، أصبح معظم كيانه بعد التحرر فى عضويته فى الأمة القومية التى ينتمى اليها حيث ملزمات الدين اليهودى وقانونه لا فاعلية لها ولا أهمية . فقد أذاب التحرير الأمة اليهودية كأمة وأذابت العلمانية الجديدة علاقة الدين بالحياة . فالسؤال الذى يجابه اليهودى فى العصر الحديث هـو : كيف لليهـودى الاحتفاظ بمكاسب التحرير دون التطويح بالأمة اليهودية والدين اليهودى ؟ أو كيف لليهودى المتحرر أن يتفهم ولاءه لأمته ولتراثه القانونى والروحى ؟

هذا هو ما يحاول مفكرو اليهود الاجابة عنه فى العصر الحديث ، وهو السؤال الذى انقسم اليهود فى الاجابة عنه الى ملل ثلاث : الملة الاصلاحية ، والملة الأرثوذكسية ، والملة المحافظة . حتى حركة الصهيونية السياسية التى شملت أتباع الملل الثلاث يعتبرها بعض المفكرين اليهود محاولة أخرى للجواب عن نفس السؤال . ولعلها كذلك .

قال مندلسون ، مواجها القضية بعينها : أيها اليهودى . وافـق دستور الدولة واعمل بجميع عادات وقوانين البلد الذى تحل فيه . ولكن فى ذات الوقت ، كن أمينا على دين آبائك وأجدادك (١٢) . هذا سهل . أما تحقيقه فصعب جدا . ويقول يوسف بلاو ، مؤرخ الدين اليهودى فى العصر الحديث : ان جميع ما كتبه اليهود فى جميع الملل والمدارس خلال هذا العصر يمكن اعتباره هوامش على هذه الملاحظـة البسيطة لموسى مندلسون (١٣) وسنرى تفاصيل ذلك فيما يتبع .

* * *

---

(١٢) الكتاب السابق ذكره ، (Moses Mendelssohn) ، صـفحة ٣٥٨ وما يليها من الجزء الثالث .

(١٣) الكتاب السابق ذكره ، (Joseph Blau) ، صفحة ٢٧ .